HNSJ Humanities & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net

مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة (التصنيف: NSP)
معامل التأثير العربي للعام 2024 = 0.44

عنوان البحث

الأبعاد الوظيفية لتدريس العلوم الإسلامية عند أعلام الفكر التربوي بالغرب الإسلامي - الإمام ابن عبد البر الأندلسي المالكي (ت 463 هـ) أنموذجا

عبد الرحمان هيبة الله[1]

1 دكتوراه في الفكر الإسلامي. أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة فاس . مكناس. المملكة المغربية.
البريد الإلكتروني: abderrahim811@gmail.com

HNSJ, 2025, 6(5); https://doi.org/10.53796/hnsj65/48
المعرف العلمي العربي للأبحاث: https://arsri.org/10000/65/48

تاريخ الاستقبال: 2025/04/07م تاريخ القبول: 2025/04/15م تاريخ النشر: 2025/05/01م

المستخلص

يسعى هذا البحث للنبش في المعالم الكبرى للفكر التربوي لحافظ المغرب، الإمام ابن عبد البر الأندلسي المالكي المتوفى سنة 463 هـ، وإماطة اللثام عن حياة وتراث هذا العالم الجهبذ، والوقوف على أبرز المبادئ التربوية التي ضمنها كتابه " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله "، ومنها الحرص على نشر العلم، والتلطف بالطلاب، والرحمة بهم، والتحلي بآداب وأخلاقيات العلم والتعليم، ومراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، واعتماد أساليب الحوار التربوي، والتشويق، والتدرج في تعليمهم، والحرص على تنويع المادة العلمية المقدمة لهم، وحفزهم على الانفتاح على مصادر العلم المختلفة والمتنوعة...وبيان أثر هذه المبادئ في تحقيق مقصد الوظيفية في التعليم، وتلمس سبل الاستفادة منها في تجويد تدريسية العلوم الإسلامية، والرقي بها، ومن ثم تمكين المتعلم من المهارات والقدرات الأساسية التي تؤهله لخوض غمار الحياة الاجتماعية، والتأثير الإيجابي في محيطه ومجتمعه.

الكلمات المفتاحية: الفكر التربوي، مناهج التدريس، العلوم الإسلامية، ابن عبد البر، الوظيفية.

RESEARCH TITLE

The Functional Dimensions of Teaching Islamic Sciences among Prominent Educational Thinkers in the Islamic West: Imam Ibn Abd al-Barr al-Andalusi al-Maliki (d. 463 AH) as an Exemplar

Abstract

THIS research seeks to dig into the great features of the educational thought of Hafiz al-Maghrib, Imam Ibn Abd al-Bar al-Andalusi al-Maliki, who died in the year 463 AH, and to unveil the life and heritage of this glorious scientist. Alongside, it enables us to learn about the most prominent pedagogical principles of his book "The Collector of Science and Its Virtue and What Should Be Told and Carried". Included in this are the desire to share knowledge, be kind to learners, have mercy on them, demonstrate the morals and ethics of science and education, account for learner differences, use educational dialogue, suspense, and gradualism techniques, diversify the scientific material presented to them, and encourage them to seek out information from a variety of sources. Also, it aims at demonstrating the impact of these principles on the achievement of the purpose of functionality in education, and see how they can be used to improve and upgrade the teaching of Islamic sciences. Thus, the learner's basic skills and abilities are empowered to engage in social life and have a positive impact on his or her surroundings and society.

Key Words: The educational thought, teaching curriculums, Islamic sciences, Ibn Abd al-Bar, functionality.

تقديم:

لعل من نافلة القول أن ننوه إلى أن الحضارة الإسلامية كرمت الإنسان، واهتمت ببناء شخصيته، وتنمية ملكاته عن طريق حثه على طلب العلم وتحصيل أصناف العلوم والمعارف، ودفعه للانخراط الفعال في بناء نهضة حضارية ممتدة في الزمان والمكان.

ونظرا للأهمية العظمى التي حظي بها العلم والتعليم في سلم البناء الحضاري للأمة الإسلامية، فقد سعى علماء الإسلام إلى العمل على نشره وتعميمه بين عامة الناس وخاصتهم، بمختلف الوسائل والآليات، كما اهتموا بوضع القواعد والضوابط المساعدة على تطوير فلسفة تربوية تروم الرقي بالعملية التعليمية . التعلمية، وتجويد مخرجاتها على جميع المستويات، كما هو واضح من كثرة المؤلفات التي صنفوها في بيان فضل العلم وآدابه وغايته... والمناهج التربوية المناسبة لتدريس كل صنف من أصناف العلوم، وفي طليعتها العلوم الإسلامية التي ظلت عبر تاريخ المسلمين من أهم آليات بناء المجتمع، وحفظ هويته الحضارية، وأصوله المعرفية، وقيمه التربوية.

وجدير بالذكر أن أعلام الغرب الإسلامي قد ضربوا بسهم وافر في هذا الباب؛ حيث ظهر فيهم كثير من العلماء والمربين الذين أسهموا من خلال مؤلفاتهم العديدة في بناء ثقافة تربوية إسلامية غنية المحتوى، واضحة الهدف، غزيرة العطاء. ويعد الإمام ابن عبد البر الأندلسي المالكي (ت 463 هـ)، ممن حاز قصب السبق في هذا المضمار؛ كما هو جلي من خلال مؤلفاته العديدة والمتنوعة، وفي مقدمتها كتابه الموسوم ب" جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله " الذي يعد موسوعة علمية تربوية هامة، حيث ضمنه صاحبه أبوابا كثيرة في بيان فضل العلم، وآداب العالم والمتعلم، وأقسام العلوم، وطرق وأساليب تدريسها، والغاية من تحصيلها، كما أوصى من خلاله المدرسين والمربين باعتماد منهج التدرج في تقديم المعارف للمتعلمين، ومراعاة الفروق الفردية بينهم، والسعي لترسيخ التفكير التأملي في نفوسهم، وشحذ ملكة بناء المعرفة والتفاعل معها في أذهانهم، وغيرها من المضامين التربوية التي تؤكد على عمق فكره التربوي ومتانته.

من هذا المنطلق أعتقد أن الغوص في أعماق الفكر التربوي لهذا الإمام الفذ، ورصد الأبعاد الوظيفية فيه، باعتماد المنهج الوصفي التحليلي الاستنتاجي للإحاطة بموضوعه، سيسهم في إماطة اللثام عن كثير من درره ونفائسه، كما سيبين بجلاء، أهمية العودة إلى تراثنا التربوي التليد، والنهل منه، للإسهام في بناء مقاربة بيداغوجية واضحة الأهداف والمعالم، وذلك من خلال الإجابة عن جملة من الإشكالات، من قبيل: ما هي الملامح الكبرى للفكر التربوي عند الإمام ابن عبد البر الأندلسي المالكي؟ وكيف يمكن الاستفادة من تراثه التربوي الثري في بناء هندسة منهاجية، قَمِينة بتحقيق مقصد الوظيفية، ومن ثمة الرقي بتدريسية العلوم الإسلامية؟

هذه الإشكالات وغيرها، ستسعى هذه المقالة للإجابة عنها.

وجدير بالذكر أن هناك بعض الدراسات السابقة في هذا الموضوع، ومنها ما يلي:

. كتاب أعلام التربية في تاريخ الإسلام (2) يوسف ابن عبد البر القرطبي، للأستاذ عبد الرحمان النحلاوي، صدرت الطبعة الأولى منه عن دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق . سوريا، سنة 1406 هـ / 1986 م.

. ابن عبد البر وآراؤه التربوية، للباحث علي بن سليمان الربيع، وهي عبارة عن بحث علمي تقدم به لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية من جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية، كلية التربية، قسم التربية الإسلامية والمقارنة، برسم الموسم الدراسي: 1407 / 1408 هـ.

. الفكر التربوي عند الإمام ابن عبد البر الأندلسي، للباحث سليمان تكروري محمد كايد، وهي عبارة عن أطروحة علمية تقدم بها للحصول على درجة الدكتوراه من كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية سنة 2005م.

وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات في البحث في ثنايا الفكر التربوي للإمام ابن عبد البر، وبيان المضامين التربوية التي حواها، ومقارنتها ببعض النظريات التربوية المعاصرة، إلا أن ما يؤاخذ عليها، هو أنها لم تول المقصد الوظيفي في الفكر التربوي لهذا الإمام ما يستحقه من العناية والاهتمام، لذلك سعت هذه المقالة العلمية لتدارك هذا الأمر، وإبراز أهمية المقصد الوظيفي للفكر التربوي عند الإمام ابن عبد البر، وأثره في بناء هندسة منهاجية، قَمِينة بالرقي بتدريسية العلوم الإسلامية.

1 . لمحة عن الحياة العلمية بالغرب الإسلامي في عصر ابن عبد البر الأندلسي المالكي.

إن المطلع على تاريخ العلم عند المسلمين، يدرك أن الحضارة الإسلامية اهتمت بالعلم والمعرفة اهتماما فاق ما عرفته الحضارات الأخرى قبلها، ولذلك شكل دخول الإسلام إلى بلاد الغرب الإسلامي حدثا مفصليا، شهدت معه هذه الربوع بروز كثير من مراكز العلم والتعليم؛ حيث أضحت معظم مدن هذه البلاد وحواضرها منارات للعلم والمعرفة، كما هو الشأن بالنسبة للقيروان، وفاس، وقرطبة، وإشبيلية، وسجلماسة، وتلمسان، وغيرها من المراكز التي أمها الطلاب من كل حدب وصوب؛ حتى أضحت سوق العلم نافقة بها، وذلك بفضل الاهتمام الذي أولاه أهلها للعلم والتعليم الذي هو من الديانة.

وإذا كانت العلوم الإسلامية قد حظيت في المراحل الأولى لدخول الإسلام لبلاد الغرب الإسلامي، باهتمام المغاربة أكثر من غيرها من أصناف العلوم، نظرا لارتباطها الوثيق بكتاب الله تعالى، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن استقرار الدين الجديد، ورسوخ قدمه في أرجائها ومناحيها، وتوسع الرحلة في طلب العلم في اتجاه بلاد المشرق الإسلامي، جعل الحياة العلمية تصبح أكثر ثراء وغنى بهذه الربوع، حيث تعاظم الاهتمام بأصناف العلوم والمعارف، كما كان الشأن بالنسبة لبلاد الأندلس التي رحل كثير من أعلامها إلى حواضر الحجاز، وبغداد، ومصر... ثم ما لبثوا أن عادوا إلى بلادهم محملين بأصناف العلوم والمعارف؛ " فلم يقفوا عند العلوم الدينية، بل اقتطفوا من علوم العربية والرياضية بترددهم ورحلاتهم إلى المشرق ما غبطهم عليه كثير من المشرقيين." [1]

ومع انتهاء القرن السادس الهجري، وبداية القرن السابع شهدت العملية التعليمية . التعلمية ببلاد الغرب الإسلامي طفرة نوعية كبيرة، تمثلت في ظهور المدارس، " بعد أن أحدثت أقدمها بمدينة سبتة." [2] أسسها أحد الخواص من العلماء، يدعى أبو الحسن علي الغافقي الشاري السبتي (ت 649 هـ) الذي" كان محدثا، راوية مكثرا، ثقة عدلا، ناقدا، ذاكرا للتواريخ وأخبار العلماء، وأحوالهم، وطبقاتهم قديما وحديثا، شديد العناية بالعلم، جاعلا الخوض فيه مفيدا ومستفيدا وظيفةَ عمره، جمَّاعة للكتب والدفاتر، مغاليا في أثمانها." [3]

وعلى الرغم من تأخر ظهورها نسبيا مقارنة مع مؤسسة المسجد والرباط والزاوية، إلا أن تأثير المدرسة في تطوير العملية التعليمية التعلمية ببلاد الغرب الإسلامي كان واضحا؛ " إذ غيرت كثيرا من التقاليد التعليمية الإسلامية التي كانت سائدة قبل ظهورها في القرن السابع الهجري، وأرست تقاليد جديدة، وأثرت بصفة خاصة في طرق تمويل التعليم، وفي

1 . الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة / دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 1427 هـ / 2006، ص: 60.

2 . الحسين أسكان، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1 . 9 هـ / 7 . 15 م)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004م، ص: 59.

3 . المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2012 م، المجلد الخامس (السفر الثامن) ص: 55.

أهدافه، وحتى في مضامينه، إلى غير ذلك من التغييرات. " [4]

وجدير بالذكر أن هذه المؤسسات العلمية التعليمية بمختلف أصنافها قد أسهمت في إثراء الحياة العلمية بهذه الربوع، مستفيدة من الازدهار الكبير الذي عرفه الفكر التربوي الإسلامي، سواء على مستوى المناهج وطرق التدريس، أم على مستوى المضامين التربوية، خاصة بعد ظهور عدد من المصنفات العلمية التي اهتمت بتنظيم العملية التعليمية . التعلمية، ووضع الضوابط الكفيلة بالرفع من مستواها، واختيار أجود الطرق والأساليب التربوية المساعدة على تحصيل العلوم والمعارف، ومن أبرز هذه المؤلفات كتاب" جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله " للفقيه المحدث ابن عبد البر الأندلسي المالكي (ت 463 هـ) الذي يعد من أنفس ما كتب في الفكر التربوي الإسلامي.

2 . الحافظ ابن عبد البر الأندلسي المالكي: حياته وآثاره.

هو الفقيه الإمام، العالم الحافظ، أبو عمر يوسف بن عبد البر، شيخ علماء الأندلس، وكبير محدثيها في زمانه، وأحفظ من كان فيها لسنة مأثورة، نشأ في أسرة عريقة معروفة بالعلم والصلاح؛ فقد كان والده " أبو محمد: عبد الله بن محمد من أهل العلم، من فقهاء قرطبة، سمع من أحمد بن مطرف، وأحمد بن حزم، وأحمد بن دحيم، وغيرهم، وكان من أهل الأدب البارع، والبلاغة، وله رسائل وشعر جيد." [5]

ولد ابن عبد البر بقرطبة يوم الجمعة، والإمام يخطب، لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وستين " وثلاثمائة هجرية. [6] وبها طلب العلم وتفقه على يد فطاحل علمائها،" وسمع بنفسه قبل الأربعمائة بمدة، من جماعة أصحاب قاسم بن أصبغ البياني، وغيره."" [7]

طبقت شهرته الآفاق فأقبل عليه الطلاب من مختلف المناطق والأصقاع، من داخل الأندلس ومن خارجها، ومن أبرز من روى عنه: " طاهر بن مفوز، وأبو الحسن، وأبو بحر سفيان بن العاصي... وجماعات. " [8]

أثنى عليه العلماء في القديم والحديث، وحلوه بأجل الأوصاف التي تدل على جلالة قدره، ورسوخ كعبه في العلوم، وخاصة علمي الفقه والحديث، ومن ذلك قول أبي الوليد الباجي رحمه الله تعالى: " لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث." [9] وقال عنه أيضا:" أبو عمر أحفظ أهل المغرب."[10] وحلاه الإمام الضبي (ت 599 هـ) بقوله: " فقيه، حافظ، مكثر، عالم بالقراءات وبالخلاف في الفقه، وبعلوم الحديث والرجال، قديم السماع، كبير الشيوخ." [11] وأثنى عليه الوزير الفتح بن خاقان الإشبيلي (ت 529 هـ) بقوله: " إمام الأندلس وعالمها، الذي التاحت به معالمها، صحح المتن والسند، وميز المرسل من المسند، وفرق بين الموصول والقاطع، وكسا الملة منه نور ساطع، حصر الرواة، وأحصى

4 . الحسين أسكان، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1 . 9 هـ / 7 . 15 م) (مرجع سابق) ص: 55.

5 . ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط 1، 1417 هـ / 1996 م، ص: 441 . 442.

6 . ينظر: ابن بشكوال، الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة . دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1410 هـ / 1989 م، ج 3، ص: 974، والديباج المذهب ص: 442.

7 . الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة . دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1410 هـ / 1989 م، 2 / 660.

8 . نفسه، 2 / 661 (بتصرف).

9 . ابن بشكوال، الصلة، 1410 هـ / 1989 م، 3 / 973.

10 . نفسه، 3 / 973.

11 . الضبي، بغية الملتمس، 1410 هـ / 1989 م، 2 / 660.

الضعفاء منهم والثقات، وجد في تصحيح السقيم، وجدد منه ما كان كالكهف والرقيم... له فنون هي للشريعة رتاج، وفي مفرق الملة تاج ... وكان ثقة، وكانت الأنفس على تفضيله متفقة، وأما أدبه فلا تعبر لجته، ولا تدحض حجته. " [12] وقال عنه صاحب كتاب الصلة: "دأب أبو عمر في طلب العلم، وافتن فيه، وبرع براعة فاق بها من تقدمه من رجال الأندلس."[13]

عرف ابن عبد البر رحمه الله تعالى بتمكنه في فنون مختلفة من العلم؛ فهو " مع تقدمه في علم الأثر، وبصره بالفقه، ومعاني الحديث، له بسطة كبيرة في علم النسب والخبر. " [14] وهو ما تجلى من خلال المؤلفات الهامة والكثيرة التي خلفها. قال عنه صاحب كتاب الصلة: " كان موفقا في التأليف، معانا عليه، ونفع الله بتواليفه." [15] ومن أبرز هذه المؤلفات: " كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد "، رتبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وهو كتاب لم يتقدمه أحد إلى مثله، وهو سبعون جزءا. قال أبو محمد ابن حزم: لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله، فكيف أحسن منه، ثم صنع: كتاب " الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار "، شرح فيه الموطأ على وجهه، ونسق أبوابه، وصنع كتابا جمع فيه أسماء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، كتابا جليلا مفيدا سماه كتاب " الاستيعاب "، وكتاب " الكافي " في الفقه، وله كتاب " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله " وكتاب " الدرر في اختصار المغازي والسير " وكتاب " العقل والعقلاء " وما جاء في أوصافهم، وله كتاب صغير في قبائل العرب، وأنسابهم سماه " جمهرة الأنساب " وصنف كتاب " بهجة الجالس وأنس المجالس " في ثلاثة أسفار، جمع فيه أشياء مستحسنة تصلح للمذاكرة والمحاضرة." [16] وغيرها من المؤلفات القيمة التي تنهض دليلا على غزارة علم ابن عبد البر، ورسوخ كعبه في مختلف أبوابه وفنونه.

توفي رحمه الله " في آخر ربيع الآخر، ودفن يوم الجمعة لصلاة العصر من سنة ثلاث وستين وأربعمائة. " [17]

3 . معالم الفكر التربوي عند الإمام ابن عبد البر من خلال كتابه: " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله. "

يعد كتاب " جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي من روايته وحمله " من أنفس ما ألف في الفكر التربوي عند علماء الإسلام، وذلك راجع لشخصية صاحبه الذي يعد من أكابر العلماء، وفطاحل الفقهاء والمحدثين، وممن حاز قصب السبق في كثير من أبواب العلم وفنونه. رسم في هذا الكتاب منهجا تعليميا تربويا متكاملا، للعالم، ولطالب العلم الذي يبغي التضلع في أصناف العلوم والنبوغ والاجتهاد فيها. وقد حرص رحمه الله تعالى، على بيان دواعي تأليفه له وموضوعه، والغاية منه، من خلال ما ذكره في مقدمته، كما هو واضح من قوله: " أما بعد، فإنك سألتني رحمك الله عن معنى العلم، وفضل طلبه، وحمد السعي فيه، والعناية به، وعن تثبيت الحجاج بالعلم، وتبيين فساد القول في دين الله بغير فهم، وتحريم الحكم بغير حجة، وما الذي أجيز من الاحتجاج والجدل؟ وما الذي كره منه؟ وما الذي ذم من الرأي؟ وما حمد منه؟ وما جُوِّز من التقليد وما ذم منه؟

ورغبت أن أقدم لك قبل هذا من آداب التعلم وما يلزم العالم والمتعلم التخلق به، والمواظبة عليه، وكيف وجه الطلب،

12 . الفتح ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، دار عمار . مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1، 1403 هـ / 1983 م، ق 2، ص: 294 . 295 (بتصرف).

13 . ابن بشكوال، الصلة، 1410 هـ / 1989 م، 3 / 974.

14 . نفسه، 3 / 974.

15 . نفسه، 3 / 974.

16 . ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب، 1417 هـ / 1996 م، ص: 440 . 441.

17 . ابن بشكوال، الصلة، 1410 هـ / 1989 م، 3 / 974.

وما حُمد ومدح فيه من الاجتهاد والنصب، إلى سائر أنواع آداب التعلم والتعليم وفضل ذلك، وتلخيصه باباً باباً مما روي عن سلف هذه الأمة رضي الله عنهم أجمعين، لتتبع هديهم، وتسلك سبيلهم، وتعرف ما اعتمدوا عليه من ذلك مجتمعين أو مختلفين في المعنى منه، فأجبتك إلى ما رغبت، وسارعت فيما طلبت، رجاء عظيم الثواب، وطمعاً في الزلفى يوم المآب، ولِما أخذه الله تعالى على المسؤول العالم بما سئل عنه من بيان ما طلب منه، وترك الكتمان لما علمه. قال الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ [18] وقال صلى الله عليه وسلم: "من سئل عن علم فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار. " [19]

ومما يؤكد على قيمة هذا الكتاب أيضا، هو تلك الثروة الهائلة من النصوص الشرعية، وأقوال أئمة السلف، وأقوال الحكماء، والشعراء، التي ساقها في بيان أهمية العلم، وفضله، وآدابه، والطرق العلمية المساعدة على تحصيله، مع التزام الدقة في النقل، وتعزيز أقواله بالأدلة الشرعية المناسبة، مستفيدا في ذلك كله من تضلعه في العلوم، وخاصة علمي الفقه والحديث. يقول الأستاذ عبد الرحمن النحلاوي: " وقد ترك لنا كتبا قيمة فيها كنوز من الآراء التربوية والفقهية، والآثار والأحاديث النبوية، الخاصة بتربية خير البرية. من أشهرها كتاب (جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي من روايته وحمله) بين فيه الكثير من مبادئ التربية الإسلامية، وآداب التعلم وطلب العلم، والتعليم ونشر العلم، وأساليبهما. وعرض رأيه في أصل العلم وحقيقته، ومنابع المعرفة وصحتها، ومراتب العلوم وقيمتها، عرضا يستنبط منه الباحث المدقق نظرية متكاملة عن العلم والمعرفة." [20] أسسها على جملة من المبادئ التربوية الكبرى، ومنها ما يلي:

. وجوب نشر العلم وتبليغه للناس، والنهي عن كتمانه.

فقد حث رحمه الله تعالى، الناس . أفرادا وجماعات . على القيام بنشر العلم في المجتمع وتبليغه، لما في ذلك من النفع الكبير للمعلم والمتعلم؛ حيث دعا إلى عدم انكفاء صاحب العلم على ذاته، واستئثاره بالعلم لنفسه، لأن في ذلك حجرا للعلوم على فئة محدودة من أفراد المجتمع، ومن ثم عدم استفادة أفراد الأمة من هذا العلم. وقد استدل على موقفه هذا بجملة من النصوص الشرعية، منها ما رواه " سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه: " لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم." " [21] ومنها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " مثل الذي يتعلم العلم ولا يتحدث به، كمثل الذي يكنز الذهب ولا ينفق منه. " " [22] ومنها أيضا ما رواه أبو يزيد بن أبي الغمر، عن ابن القاسم قال: " كنا إذا ودَّعنا مالكا يقول لنا: اتقوا الله، وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه." [23] وغيرها من الآثار الكثيرة التي ذكرها في مواضع متفرقة من كتابه، كما هو واضح من قوله: " وذكرنا من فضل نشر العلم وكراهية كتمانه في كتابنا هذا في غير موضع منه ما أغنى عن إعادته ههنا." [24]

إن حث ابن عبد البر رحمه الله تعالى، على طلب العلم، نابع من إدراكه لوظيفة العلم وأهميته في حياة الأفراد والجماعات؛ فهو سبيلهم إلى معرفة الله تعالى وعبادته، وهو طريقهم إلى عمارة الأرض، وتحقيق مبدأ الاستخلاف فيها،

18 . سورة آل عمران، الآية: 187.

19 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام . المملكة العربية السعودية، ط 1، 1414 هـ / 1994 م، 1 / 1 . 2. (ينظر: تخريج الحديث في الكتاب).

20 . عبد الرحمن النحلاوي، أعلام التربية في تاريخ الإسلام2 يوسف بن عبد البر القرطبي، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 1406 هـ/ 1986 م، ص: 6. 7.

21 . ينظر نص الحديث وتخريجه في جامع بيان العلم وفضله، 1 / 488.

22 . ينظر نص الحديث وتخريجه في جامع بيان العلم و فضله، 1 / 489.

23 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 492.

24 . نفسه، 1 / 499.

واتباع أسباب النهضة والتقدم في مختلف مجالات الحياة، وهذا ما أكده الفكر التربوي الإنساني الحديث؛ وهو ما يدل على أسبقية علماء الإسلام . ومنهم ابن عبد البر . في التنبيه على أهمية العلم وقيمته، والتحذير من كتمانه وعدم إشاعته بين الناس.

. تحري الإخلاص لله في طلب العلم وفي تعليمه، وإرادة الخير به للناس.

يعد الإخلاص من أجل الأعمال وأعظمها قدرا؛ فهو روح الأعمال، وسر كمالها، وسبيل تزكية النفس وتهذيبها، وحثها على الاجتهاد في أعمال البر والخير، ومن ذلك الاجتهاد في طلب العلم وتحصيله، وتعليمه للناس، رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر والثواب، لذلك حرص علماء التربية المسلمين على الدعوة إلى التخلق به في الأمور كلها، ومنها العلم والتعليم، رجاء أن يحقق العلم الوظيفة المرجوة منه، من إيصال الخير للناس ودفع الشر عنهم في عاجلهم وآجلهم، وهذا ما أكد عليه الشيخ ابن عبد البر، حيث بوَّب لهذا الموضوع في كتابه " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله " بباب عنونه ب" باب ذم الفاجر من العلماء، وذم طلب العلم للمباهاة والدنيا." وقد تضمن هذا الباب جملة من النصوص الشرعية والأقوال المأثورة، نذكر منها ما رواه جابر رضي الله عنه قال: " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتحتازوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار." [25] قال ابن عبد البر: " وهذا الوعيد لمن لم يرد بعلمه شيئاً من الخير. " [26] وهذا تأكيد منه رحمه الله تعالى، على أن من أعظم ما يحقق غايات العلم وأهدافه، هو الإخلاص لله تعالى في تعلمه وتعليمه.

. تحري الأمانة العلمية، والصدق في نقل العلم.

تعد الأمانة العلمية من القيم الفضلى التي تحفظ للعلم مكانته في الحياة، لذلك حرص علماء المسلمين على تجسيد هذا الخلق الرفيع في واقع حياتهم؛ ومنهم الشيخ ابن عبد البر الذي عرف بشدة تحريه في النقل والرواية على منهج المحدثين، رحمهم الله تعالى، كما كان حريصا على حث طلابه على التمسك بهذا المبدأ الأصيل، لذلك نص عليه في مواضع مختلفة من كتابه: " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله " وخصه بباب أسماه: " باب آفة العلم وغائلته وإضاعته، وكراهية وضعه عند من ليس من أهله "، حيث ذكر فيه عدداً من النصوص والآثار عن التابعين كقول الزهري رحمه الله تعالى: " إن للعلم غوائل، فمن غوائله أن يترك العالم حتى يذهب بعلمه، ومن غوائله النسيان، ومن غوائله الكذب فيه، وهو شر غوائله." [27] وغيرها من الآثار التي تحذر من الكذب في العلم؛ لأن ذلك يعد مفسدة عظيمة، وطريقا لضياع العلم، وذهاب فضله.

. التلطف بطلاب العلم والرفق والرحمة بهم.

أبدى الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى، اهتماما واضحا بطلاب العلم، حيث اعتبرهم الأساس الذي تقوم عليه العملية التعليمية . التعلمية، وأفاض في دعوة العلماء والمدرسين إلى الرفق بهم، لإعانتهم على تحصيل العلم والنبوغ فيه، لذلك عقد فصلا كاملا من كتابه " جامع بيان العلم " لتجلية هذا الغرض، تحدث فيه عن وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالتلطف والرفق في تعليم الناس، ثم أورد بعض الآثار الدالة على ذلك، ومنها ما روي عن أبي هارون العبدي وشهر بن حوشب قالا: " كنا إذا أتينا أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: مرحبًا بوصية رسول الله، قال رسول الله صلى

25 . نفسه، 1 / 648.

26 . نفسه، 1 / 648.

27 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414 هـ / 1994 م، 1 / 442.

الله عليه وسلم:" ستفتح لكم الأرض ويأتيكم قوم، أو قال: غلمان حديثة أسنانهم، يطلبون العلم، ويتفقهون في الدين ويتعلمون منكم، فإذا جاءوكم فعلموهم والطفوهم، ووسعوا لهم في المجلس وأفهموهم الحديث".

فكان أبو سعيد يقول لنا: مرحبًا بوصية رسول الله، أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن نوسع لكم في المجلس، وأن نفهمكم الحديث." [28]

إن هذا المبدأ التربوي العظيم يدل على عمق الرؤية التربوية لابن عبد البر، وهذا ما أكدته النظريات التربوية الحديثة التي تعتبر الاهتمام بالمتعلم على رأس أولوياتها، لأنه يعد محور العملية التعليمية . التعلمية.

وإلى جانب دعوته للرفق بالمتعلمين، حرص الشيخ ابن عبد البر على بيان أهم الصفات والآداب التي ينبغي للمعلم، ولطالب العلم أن يتصف بها؛ ذلك أن الغاية من العملية التعليمية . التعلمية لا يمكن أن تتحقق، وتؤتي ثمارها الطيبة، إلا إذا حرص المربون والمدرسون، وطلاب العلم على التحلي بجملة من الآداب والقيم التربوية العظيمة.

أ . آداب العالم والمعلم عند الإمام ابن عبد البر.

ذكر رحمه الله تعالى عددا كبيرا منها بين ثنايا كتابه، كما أورد جملة من النصوص والآثار الدالة عليها، ومنها قوله: " وقالوا: " من تمام آلة العالم أن يكون مهيبًا وقورًا، بطيء الالتفات، قليل الإشارات، لا يصخب، ولا يلعب، ولا يجفو." [29] ثم ذكر قول الإمام الشافعي رحمه الله تعالى مبينا بعض صفات العلماء: " من حفظ القرآن عظمت حرمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن عرف الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحو رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم." [30]

ومن جانب آخر فقد أوصى العلماء بالتواضع وترك الخيلاء؛ فقال رحمه الله تعالى: " ومن أفضل آداب العالم تواضعه، وترك الإعجاب بعلمه، ونبذ حب الرياسة عنه، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله." [31] كما عقد فصلاً " في ترك العالم ما لا يحسنه، وترك المفاخرة بما يحسنه إلا أن يضطر إلى ذلك. " ثم قال: " ومن أدب العالم ترك الدعوى لما لا يحسنه، وترك الفخر بما يحسنه إلا أن يضطر إلى ذلك، كما اضطر يوسف، عليه السلام، حين قال: ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾[32] وذلك أنه لم يكن بحضرته من يعرف حقه فيثني عليه بما هو فيه، ويعطيه بقسطه، ورأى هو أن ذلك المقعد لا يقعده غيره من أهل وقته، إلا قصر عما يجب لله عز وجل من القيام به من حقوقه، فلم يسعه إلا السعي في ظهور الحق بما أمكنه، فإذا كان ذلك فجائز للعالم حينئذ الثناء على نفسه، والتنبيه على موضعه، فيكون حينئذ يحدث بنعمة ربه عنده على وجه الشكر لها... وأفضح ما يكون للمرء دعواه بما لا يقوم به، وقد عاب العلماء ذلك قديمًا وحديثًا. [33]

وغيرها من الآداب والأخلاق الحميدة التي أوصى بها ابن عبد البر العالم والمربي، حتى يقوم كل منهما بأداء رسالته التربوية على أكمل وجه، فيكونا بذلك خير قدوة لطلابهما.

---

28 . نفسه، 1 / 578.

29 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 580.

30 . نفسه، 1 / 511.

31 . نفسه، 1 / 562.

32 . سورة يوسف، الآية: 55.

33 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 576.

ب . آداب طالب العلم عند الإمام ابن عبد البر.

ساق ابن عبد البر آداباً كثيرة لطالب العلم في أبواب مختلفة من كتابه، ومنها احترام العالم والتأدب بحضرته، ثم استدل على ذلك بجملة من النصوص والآثار، ومنها ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: " من حق العالم عليك إذا أتيته أن تسلم عليه خاصة، وعلى القوم عامة، وتجلس قُدَّامه، ولا تشر بيديك، ولا تغمز بعينيك، ولا تقل: قال فلان خلاف قولك، ولا تأخذ بثوبه، ولا تلح عليه في السؤال؛ فإنه بمنزلة النخلة المرطبة لا يزال يسقط عليك منها شيء." [34] وغيرها من الآثار الكثيرة التي ذكرها رحمه الله تعالى بعد أن أفاض في ذكر الآداب التي يجب أن يتحلى بها طالب العلم حتى يصفو له معين العلم. ولا تكدره الأخلاق السيئة التي هي حجاب بين المتعلم والعلم، وهو ما يدل على إيمانه العميق بأهمية القيم التربوية في تحقيق مبدأ الوظيفية في التعليم، واجتناء الثمار الطيبة للمعرفة على مستوى الفرد والجماعة، وهو ما تنبه إليه كثير من رجال التربية المعاصرين، الذين أضحوا يرون أن الاهتمام بالقيم التربوية، هو من أهم مداخل نجاح أي نظام تربوي تعليمي.

. مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين، ومخاطبتهم على قدر عقولهم.

وهو مبدأ تربوي هام، من شأنه أن يسهم إسهاما واضحا في تحفيز الطلاب على التعلم، وتقليص الفوارق الفردية بينهم، وتحقيق مبدأ المساواة في صفوفهم، وإيجاد مناخ تربوي يشعر فيه كل واحد منهم بالاهتمام من لدن المدرس، وتقدير كفاءاته، فيزداد رغبة في التعلم، فضلا عن تقدير مدرسه ومحبته... وهو ما أضحت تنادي به اليوم كثير من المقاربات البيداغوجية الحديثة، وفي مقدمتها البيداغوجيا الفارقية التي تهتم بالفروق الفردية بين المتعلمين.

ونظرا لأهمية هذا المبدأ التربوي في إثراء العملية التعليمية . التعلمية، فقد اهتم علماء التربية المسلمين به اهتماما كبيرا، ومنهم الشيخ ابن عبد البر الذي دعا المربين والعلماء إلى استحضاره في ممارستهم التربوية، والحرص على الأخذ به، وقد استدل على ذلك بجملة من النصوص المنقولة عن سلف الأمة، ومنها ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: " ما حدثت قوما حديثا لا يعرفونه إلا كان فتنة على بعضهم." [35] وقال ابن قلابة رحمه الله تعالى: " لا تحدث بحديث من لا يعرفه، فإن من لا يعرفه يضره ولا ينفعه." [36] وغيرها من النصوص والآثار التي تؤكد على أن مراعاة قدرات المتعلمين، واستحضار الفروق الفردية بينهم، هو من أهم المبادئ المساعدة على نجاح العملية التعليمية . التعلمية، وتحقيق مقصد الوظيفية في التعليم.

. نهج أسلوب التدرج في تلقي العلوم والمعارف وتلقينها لطلاب العلم.

وذلك بمراعاة مستوياتهم العمرية، وقدراتهم العقلية... حتى يتسنى لهم استيعاب المعارف والمعلومات، وهو مبدأ قرآني أصيل لا غنى عنه لكل مدرس ومربي، في أي زمان ومكان، من أجل تجويد العملية التربوية، والرقي بمستوى الطلاب، وفقا لأسلوب تربوي واضح المعالم، يحرص فيه المربي على اختيار المواضيع المناسبة للمتعلم، وينتقل من خلاله أفقيا من موضوع إلى آخر، من أول العملية التربوية إلى منتهاها. ونظرا لأهمية هذا المبدأ فقد ضمنه ابن عبد البر كتابه " جامع بيان العلم وفضله " وخص له بابا سماه: " باب الرتبة في طلب العلم "، ذكر فيه جملة من الآثار التي توضح أهميته، ومنها ما روي عن ابن شهاب أنه قال ليونس بن يزيد رحمهما الله تعالى: " يا يونس! لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيها

34 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 580.

35 . نفسه، 1 / 541.

36 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 540.

أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة؛ فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام." [37] فالتدرج في الأمور سنة كونية، وأولى ما يجب مراعاة هذا الأمر فيه هو طلب العلم، وإلا فقد العلم جملة. قال ابن عبد البر رحمه الله تعالى: " طلب العلم درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعديها، ومن تعداها جملة فقد تعدى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدى سبيلهم عامدا ضل، ومن تعداه مجتهدا زلَّ." [38]

إن هذه المبادئ التربوية التي تم الوقوف عليها من خلال ما ورد في كتاب " جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي من روايته وحمله " تنهض دليلا على عمق وأصالة الفكر التربوي للإمام ابن عبد البر، وتؤكد على أن التعليم عامة، وتدريس العلوم الإسلامية خاصة، في مختلف الأسلاك التعليمية، لا يمكن أن يحقق مقاصده الوظيفية، وأبعاده العملية المرجوة منه، إلا بتعميق البحث فيها، ومن ثم صياغة نظريات تربوية تمتاح من التراث التربوي لعلماء المسلمين، وتنفتح في الآن ذاته على التجارب الرائدة للفكر الإنساني.

4 . سبل الاستفادة من ثمرات الفكر التربوي للإمام ابن عبد البر في بناء هندسة منهاجية لتدريس العلوم الإسلامية.

لعل من المفيد أن نشير إلى أن المضامين التربوية التي جاء بها الإمام ابن عبد البر رحمه الله تعالى، هي ثمرة تجربة ثرية في ميدان التربية والتعليم، حرص من خلالها على وضع الأسس القمينة بالرقي بالعملية التربوية، فضلا عن تحقيق الغايات والمقاصد الكبرى للتعليم، ذلك أن العلم لا يمكن أن يكتسب مشروعيته وقيمته إلا إذا صدقه العمل، فتحول إلى سلوكات عملية، لها أثرها في واقع الإنسان وحياته الفردية والجماعية، وليس مجرد معرفة نظرية فحسب. يقول سيد قطب: " نحب أن ننبه هنا إلى حقيقة أساسية كبيرة.. إننا لا نبغي بالتماس حقائق التصور الإسلامي، مجرد المعرفة الثقافية... كلا! إننا لا نهدف إلى مجرد " المعرفة " الباردة، التي تتعامل مع الأذهان، وتحسب في رصيد " الثقافة " ! إن هذا الهدف في اعتبارنا لا يستحق عناء الجهد فيه! إنه هدف تافه رخيص! إنما نحن نبتغي " الحركة " من وراء " المعرفة ". نبتغي أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة، لتحقيق مدلولها في عالم الواقع. " [39] ونظرا لما لهذا الأمر من الأهمية البالغة، فقد أفاض ابن عبد البر في الدعوة إليه؛ حيث عقد لبيانه أكثر من باب من أبواب كتابه، ضمنها كثيرا من الأحاديث والآثار التي تحث على العمل بالعلم، أو تُحذر وتتوعَّد من فرَّق بين العلم والعمل، ومن هذه الأبواب، باب "ما جاء في مساءلة الله عز وجل العلماء يوم القيامة عما عملوا فيما علموا"، وباب:" جامع القول في العمل بالعلم ". ومن الآثار التي ذكرها في هذا الصدد ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه " بدأ باليمين قبل الحديث فقال: والله ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر . أو قال: لليله . ثم يقول: يا ابن آدم! ما غرك بي؟ ابن آدم! ما غرك بي؟ ابن آدم! ما غرك بي؟ ما عملت فيما علمت؟ يا ابن آدم! ماذا أجبت المرسلين." [40] وقال عيسى عليه السلام للحواريين: " يحق أن أقول لكم: إن قائل الحكمة وسامعها شريكان، وأولاهما بها من حققها بعمله، يا بني إسرائيل! ما يغني عن الأعمى معه نور الشمس وهو لا يبصرها، وما يغني عن العالم كثرة العلم وهو لا يعمل به. " [41] وتأكيدا لهذا المعنى أورد ابن عبد البر مقطوعات من الشعر منها بيتان لسابق البربري رحمه الله تعالى يقول فيهما:

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً *** عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَر بِمَا أَنْتَ جَاهِلُه

37 . نفسه، 1 / 431.

38 . نفسه، 2 / 1129.

39 . سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، ص: 10 (بتصرف).

40 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 679.

41 . نفسه، 1 / 691.

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُتِيتَ عِلْمًا فَإِنَّمَا *** يُصَدِّقُ قَوْلَ الْمَرْءِ مَا هُوَ فَاعِلُه [42]

هذه الآثار وغيرها تؤكد على أن العلم إنما يكتسب قيمته الحقيقية عندما يصدقه العمل وتتحقق وظيفيته، فيصير قيما وسلوكات... يحيى بها الإنسان، ولذلك تؤكد كثير من النظريات التربوية الحديثة على أهمية غرس القيم في نفوس الناشئة، وتحويل كثير من المعارف النظرية إلى سلوكات إيجابية يتمثلها المتعلم في حياته اليومية. ولأجل تحقيق هذه الغاية الكبرى، اهتم ابن عبد البر ببيان كل الأمور المساعدة على تحقيق مبدأ الوظيفية في العلوم والمعارف؛ حيث أوصى رحمه الله تعالى، باعتماد الطرق التربوية المناسبة، التي تحقق مبدأ التشويق للنهل من العلوم والمعارف لدى طالب العلم، وتساعده على الإبداع وتحقيق المبادرة الذاتية، وبناء الموقف الشخصي، وتحفزه على البحث والنظر، واكتساب المهارات والكفايات الأساسية، وتفجير طاقاته الكامنة، ومؤهلاته العقلية والنفسية والوجدانية، لتمثل السلوكات الإيجابية، وهو ما نلمسه في مواضع مختلفة من كتابه " جامع بيان العلم " ومنها الباب الذي عنونه بعبارة " باب في ابتداء العالم جلساءه بالفائدة، وقوله: سلوني، وحرصهم على أن يؤخذ ما عندهم." [43] حيث أورد مجموعة من الآثار التي تبين أهمية تشويق المتعلمين، ودفعهم للتعبير عن آرائهم، ومن هذه الآثار ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثلُ الرجل المسلم، حدثوني ما هي؟ " قال عبد الله: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة. قال: فاستحييت. فقالوا: يا رسول الله ما هي؟ قال: " هي النخلة ". قال عبد الله بن عمر: فحدثت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالذي وقع في نفسي. قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا." [44] وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: " ألا رجل يسأل فينتفع، وينتفع جلساؤه. " [45] وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " زيادة العلم الابتغاء، ودرك العلم السؤال." [46] وقال ابن شهاب: " العلم خزانة، مفتاحها المسألة. " [47] وغيرها من الآثار التي ذكرها التي تنمي ملكة الإبداع لدى طالب العلم، وتشوقه لتلمس طريق المعرفة بنفسه، كما أنها ترسخ مبدأ الحوار الناجح بين المدرس وطلابه، القائم على العلم والخبرة، ومعرفة جيدة بالطرف المحَاوَر، وهو من أسس نجاح العملية التربوية التعليمية في جميع أطوارها ومراحلها. يقول الأستاذ سعد رياض: " تحتاج العملية التربوية إلى وسائل عدة للاتصال؛ فلا تربية ولا تعليم من غير اتصال، ولا اتصال فعال من غير حوار، ولا يكون الحوار ناجحا إلا إذا كان قائما على علم تربوي، وفهم لطبيعة من يُحاوَر، وما هي قدراته؟ ولذلك يحتاج الحوار الناجح إلى مزيج من الخبرة والعلم والمعرفة. " [48]

وتبدو أهمية الحوار أيضا في كونه يحبب المتعلمين في التعلم، ويشعرهم بالمشاركة في العملية التعليمية . التعلمية، ويجنبهم مساوئ الإفراط في اعتماد أسلوب التلقين، ويربي فيهم ملكات التحليل والاستنباط والنقد البناء.

وبالإضافة إلى ما ذكر نجد الإمام ابن عبد البر يوصي المدرسين والمربين، بالحرص على تنويع المادة العلمية المقدمة للطلاب، والتخفيف عنهم ما أمكن، حتى لا يقعوا في الملل والسآمة، ومن ثم تنفر نفوسهم من العلم، ولا تنشط للعمل بما علموا، وهو مبدأ تربوي جليل، اهتم به سلف هذه الأمة من العلماء والمربين، كما أكدت النظريات العلمية الحديثة على

42 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 699.

43 . نفسه، 1 / 460.

44 . نفسه، 1 / 480.

45 . نفسه، 1 / 463.

46 . نفسه، 1 / 374.

47 . نفسه، 1 / 374.

48 . سعد رياض، فن الحوار مع الأبناء، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 1، 1428 هـ / 2007 م، ص: 9.

قيمته، وأهميته في تحقيق مبدأ الوظيفية في العلوم، وقد أورد رحمه الله تعالى، جملة من الآثار توضح عناية السلف رحمهم الله تعالى به، ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج يوما على الناس فقال: " إني لأُخبر بمجلسكم، فما يمنعني من الخروج إليكم إلا كراهية أن أُملكم، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا. " [49] وروي عن علي رضي الله عنه قال: " أَجموا هذه القلوب، واطلبوا لها طرائف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان. " [50] وقال الزهري رحمه الله تعالى: " الأذن مجاجة والنفس حمضة، فأفيضوا في بعض ما يخف علينا. " [51] وغيرها من الآثار التي تجلي قيمة هذا المبدأ التربوي العظيم. ومن المبادئ التربوية التي حث عليها أيضا، مبدأ الاهتمام بالوسائل المعينة على التعليم والتعلم كالكتب والدفاتر وغيرها من الوسائل؛ التي تكسب الطالب معرفة علمية متينة؛ ذلك أن الاهتمام بالوسائل الديداكتيكية يعد مدخلا من مداخل تحقيق الأهداف المتوخاة من العملية التربوية، لذلك أفاض ابن عبد البر . شأنه شأن كثير من علماء التربية المسلمين . في التأكيد على أهميته؛ حيث عقد له بابا كاملا سماه: " باب في فضل النظر في الكتب، وحمد العناية بالدفاتر." [52] ثم أورد رحمه الله تعالى جملة من الآثار التي تبين مدى اهتمام سلف الأمة بالكتب، وحرصهم على الاستفادة منها باستمرار والعناية بالدفاتر؛ فقد " سئل أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: ما البلاذر؟ قال: إدامة النظر في الكتب " [53] وقال أبو عمرو بن العلاء: " ما دخلت على رجل قط، ولا مررت ببابه فرأيته ينظر في دفتر وجليسه فارغ، إلا حكمت عليه، واعتقدت أنه أفضل منه عقلا." [54] لذلك فإن إعادة الاعتبار لوظيفة الكتاب، وربط الطلاب عامة، وطلاب العلوم الإسلامية خاصة، بمصادر العلم الأصلية، وتنويع هذه المصادر، وحثهم على الإفادة من مختلف العلوم النافعة، دينية كانت أم دنيوية، هو من أجل الأعمال التي لا بد أن تصرف لها همم المربين والمدرسين، خاصة في عصرنا الحاضر الذي ضعف فيه إقبال كثير من طلبة العلم على الكتاب وغيره من مصادر المعرفة الأصيلة.

وجدير بالذكر أن هذه المبادئ التربوية التي تضمنها كتاب " جامع بيان العلم وفضله " تعد أساسا لبناء هندسة منهاجية من شأنها أن تساعد في تجويد تدريسية العلوم الإسلامية، والرفع من مستواها، وزيادة فاعليتها، من خلال وضع معايير واضحة تؤطر الممارسة التربوية، وتعصمها من التيه والارتجالية، وتمكن الفاعلين التربويين من الآليات البيداغوجية القمينة بتحسين ممارساتهم الديداكتيكية، تخطيطا وتدبيرا وتقويما، ووضع المناهج الدراسية الملائمة، التي تحبب طالب العلم في البحث والتحصيل والتعلم؛ ذلك أن طالب العلم متى ما أسعفته طرق التدريس ومناهجه في تقريب العلم له، وجعله قادرا على تصور مسائله، وتنزيل قواعده، وقدح الملكة العلمية في نفسه، وعدم الاقتصار على نقل المعارف النظرية المجردة إليه، لا شك أنه يقبل على طلبه بحب ونهم، بعد أن يشعر بأن له في حياته معنى ومغزى. يقول الشيخ فريد الأنصاري: " صار لدي يقين في أن التعلم الحق، ليس هو جمع المعارف واحتطابها، بقدر ما هو بحث في مناهجها، لاقتناص أسراره، بإدراك كيفيات انبنائها، وطرائق تركيبها. وفرق في مقامات العلوم بين من يروي أشكالها ورسومها ومن يستنبط ويخترع أحكامها وقواعدها، إذ (العالم ليس هو الذي يحمل في رأسه خزائن ومكتبات، ولكنه الذي يعرف كيف يوظف ما في رأسه، وما في الخزائن والمكتبات، من أجل إضافة بعض الإضافات). " [55]

---

49 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 1 / 435.

50 . نفسه، 1 / 433.

51 . نفسه،1 / 432.

52 . نفسه، 2 / 1227.

53 . ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، 1414هـ / 1994 م، 2 / 1227.

54 . نفسه، 2 / 1231.

55 . فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء . المملكة المغربية، ط 1، 1417 هـ / 1997 م، ص: 8.

إن الإفادة من خلاصات الفكر التربوي للإمام ابن عبد البر أيضا من شأنه أن يجعل تدريس العلوم الإسلامية، قائما على تنمية مهارات التجديد والاجتهاد والإبداع في نفس الطالب، وعدم الاقتصار على شحن ذهنه بكثير من العلوم والمعارف النظرية، التي لا تخلق لديه الحافزية ولا تكسبه القدرات التي تنمي في نفسه المهارات الحياتية الأساسية، التي تؤهله لخوض غمار الحياة الاجتماعية، والإسهام في تحقيق كفاية المجتمع في مجالات التدريس، والتأليف، والفتيا والقضاء... وغيرها من المهام، التي لا يمكن أن يتأهل الطالب للقيام بها إلا إذا تحققت لديه المقاصد الوظيفية للعلم.

خلاصات وتوصيات:

بعد هذه اللمحة عن المعالم الكبرى للفكر التربوي عند الإمام ابن عبد البر الأندلسي المالكي، وأبعادها الوظيفية، نخلص إلى جملة من الخلاصات والتوصيات، يمكن إجمالها فيما يلي:

أ . الخلاصات:

. إن عمق الرؤية التربوية للشيخ ابن عبد البر المالكي الأندلسي، تنهض دليلا على أصالة الفكر التربوي عند علماء المسلمين.

. إن العلم لا يكتسب شرعيته إلا إذا قصد به العمل؛ لذلك فإن مقصد الوظيفية في العلوم يبقى من أجل المقاصد التي لا بد أن يستحضرها المدرس والطالب معا، للوصول إلى الأهداف المرجوة.

. إن التمكن من العلوم الإسلامية دراسة وتدريسا، لا يتأتى إلا بالتضلع في العلوم والفنون المساعدة على ذلك، وفي مقدمتها علوم التربية؛ فبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم، بقدر ما يحرز من نصر فيه، حيث يلج فصوله من أبوابها وقد أعطي مفاتيحها، وتيسرت أمامه سبل الولوج إليها، وسبر أغوارها، واستكناه أعماقها.

. إن الاهتمام بالتراث التربوي الإسلامي، والنهل من التجارب الرائدة لبعض المفكرين التربويين المسلمين، كابن عبد البر الأندلسي، وأضرابه، من شأنه أن يسهم في الارتقاء بتدريسية العلوم الإسلامية.

. إن كثيرا من المضامين التربوية التي وردت عند أعلام الفكر التربوي الإسلامي، تتوافق توافقا تاما مع روح العصر الذي نعيشه، لذلك فإنه من الممكن الاعتمادُ عليها في صياغة رؤية تربوية واضحة المعالم لتدريس العلوم الإسلامية، تنطلق من الذات الحضارية للأمة، وتنفتح على مختلف التجارب الإنسانية الرائدة.

ب . التوصيات:

. إن تدريس العلوم الإسلامية في ظل التطور العلمي الذي يشهده العالم اليوم، في حاجة ماسة إلى إعادة النظر في طرقه وأساليبه، وذلك بالاستفادة من نتائج علوم التربية عند علماء الإسلام وغيرهم.

. تشجيع الأساتذة وطلبة العلم على إنجاز أبحاث تربوية تستهدف تطوير الممارسة الديداكتيكية في تدريس العلوم والمعارف عامة، والعلوم الإسلامية خاصة، من أجل الرقي بها والرفع من جودتها.

. العمل على إنجاز مشروع نظام تربوي إسلامي يهدف إلى تحسين تدريسية العلوم عامة، والعلوم الإسلامية خاصة.

. إعادة النظر في مناهج تقويم العلوم الإسلامية، وإعادة الاعتبار للجانب التطبيقي الوظيفي منها، ووضع معايير دقيقة وواضحة لتقويمه.

قائمة المصادر والمراجع.

- . القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.
- ابن بشكوال، الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة . دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1410 هـ / 1989 م.
- ابن عبد البر الأندلسي، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام . المملكة العربية السعودية، ط 1، 1414 هـ / 1994 م.
- ابن فرحون المالكي، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت . لبنان، ط 1، 1417 هـ / 1996 م.
- الحسين أسكان، تاريخ التعليم بالمغرب خلال العصر الوسيط (1 . 9 هـ / 7 . 15 م)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2004.
- سعد رياض، فن الحوار مع الأبناء، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 1، 1428 هـ / 2007 م.
- سيد قطب، خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، دار الشروق، ص: 10 (دون تاريخ ولا رقم الطبعة).
- الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة . دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 1، 1410 هـ / 1989 م.
- الطاهر ابن عاشور، أليس الصبح بقريب، التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة / دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 1427 هـ / 2006.
- عبد الرحمن النحلاوي، أعلام التربية في تاريخ الإسلام 2 يوسف بن عبد البر القرطبي، دار الفكر، دمشق . سوريا، ط 1، 1406 هـ / 1986 م.
- الفتح ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد علي شوابكة، دار عمار . مؤسسة الرسالة بيروت، ط 1، 1403 هـ / 1983 م.
- فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء . المملكة المغربية، ط 1، 1417 هـ / 1997 م.
- المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس ومحمد بن شريفة وبشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط 1، 2012 م.